كتاب

كسوة الكعبة المشرفة

تأليف
إبراهيم حلمى

كسوة الكعبة المشرفة

خروجا مؤقتا عن السلسلة التى أقدمها من عيون الكتب، تفرض المناسبة الدينية التى يطوف فيها المسلمون ساعين من مشارق الأرض ومغاربها، بالبيت الحرام، الوقوف أمام موضوع كسوة الكعبة المشرفة، الذى يرتبط به الوجدان الإسلامى والقلب المسلم ارتباطا يسكن إليه ويتيامن به.

ألف هذا الكتاب الأستاذ ابراهيم حلمى فى احتفاء به، واحتفال بتفاصيله واحتشاد له فهو يتكلم عن مكونات كسوة الكعبة المشرفة وفنون زركشتها وتاريخ هذه الكسوة بدءا من الجاهلية حتى العصر الحديث، والديار التى تخصصت فى صنعها وأشهر الفنانين الذين قاموا بصنعها فى مختلف العصور.

يتكلم عن فنون المحامل العربية وقوافل الحج من البلاد الإسلامية.. عن تقليديات المحمل المصرى والتى تفرد، بها، على مسار العصور.

يتكلم عن المحمل الرجبى وفنون الرماحة.. عن العادات والمعتقدات الشعبية فى موكب المحمل المصرى...

يتكلم عن فنون الأغانى والموسيقى الشعبية فى موكب قوافل الحج.

عن مكونات كسوة الكعبة المشرفة من واقع آخر وثيقة مصرية كتبت وحررت كإشهاد شرعى لكسوة الكعبة الشريفة فى عام ١٣٨٠هـ الموافق ١٩٦١م، نجدها تتكون من: (نلاحظ حب مصر للكتابة والتسجيل والتوثيق والتاريخ).

١- ثمانية أحزمة وأربعة كردشيات (زخارف كتابية فى شكل دائرى فى تكوينة خاصة) مزركشة جميعها بالمخيش (وهو نوع من الخيوط السلكية الرفيعة التى تم سحبها من الفضة أو المكفتة بالذهب) - الذهب البندقى عيار ٩٩ وهو أنقى أنواع الذهب.. وهذا كله على حرير أطلس أسود وأخضر ومحلاة بأشرطة من النوار القطن الأبيض وتتكون الكسوة من اثنين وخمسين ثوبا يحتوى كل ثوب على ١٤ر٨٠ مترا فى الطول فى عرض ٩٣ر٠ مترا.

٢- ستارة باب بيت الله الحرام وتسمى البرقع وهى مزركشة أيضا بالمخيش بنوعيه على حرير أطلس أسود وأخضر وأحمر ومبطنة بالأطلس الحرير الأصفر.. وبها ثلاثة شُرابات بضم الشين كبيرة من الحريرالأسود والقصب والمخيش مزركشة بالذهب والفضة.

٣- ستارة باب سطح بيت الله الحرام بالأسلوب نفسه.

٤- كيس مفتاح الكعبة المشرفة وهو من الأطلس الأخضر الحرير ومزركش بأسلاك الفضه والذهب وله شرابتان من القصب الفضة وثلاثة أحبال قطن مجدول تعرف بالمجاديل وواحد وأربعون حبلا من القطن تعرف بالعصافير.. وهذه الأحبال لتعليق الكسوة الشريفة على الكعبة المطهرة.

أقول ومن الطريف أن مصر ترسل أقتين من الحرير الطبيعى الأسود المفتول لإصلاح ما يلزم فى الكسوة المشرفة خلال عام إرسالها.

ويبلغ مقدار أسلاك الذهب والفضة التى تدخل فى زركشة الكسوة الشريفة ١٢٩٥٩ مثقالا من الفضة النقية ومايخالطها من الذهب البندقى (المثقال ٣٥ر٤ جرام) أقول أى ٩١٥٥٦ جراما (واحد وتسعين ألف جرام وخمسمائة وست وخمسين جراما) فإذا كان متوسط سعر الجرام عيار ٢٤ ثلاثين جنيها مصرياً فإن الزركشة المصرية لكسوة الكعبة تبلغ ٦٨٠ر٧٤٦ر٢ جنيها مليونين وسبعمائة ست وأربعين الف، وستمائة وثمانين جنيها).

ومن المدن المصرية التى برعت فى إبداع الكسوة الشريفة (**تنيس**) إحدى مدن دمياط ومدينة (**تونه**) وبالطبع **القاهرة والإسكندرية** وقد كسيت الكعبة بقباطى مصر ذى الزخرفة المميزة فى عهد الرسول عليه السلام وفى عهود خلفائه رضى الله عنهم: أبى بكر وعمر وعثمان.

وحين كتبت مصر القصة الشعبية (سيف بن ذى يزن) وشّى خيالها الكسوة على طريقتها على تزيينها مدلة بالفرق الحضارى بينها وبين الملك اليمنى ذى يزن فهو فى البداية جهز كسوة من الثياب الغليظة ثم استبدلها بالحرير.. ثم وشّى الحرير بالذهب والفضة على ثلاث مراحل بناء على رفض الهاتف فى المنام وحمله على الارتفاع بمستوى الكسوة حتى حين جعلها من الحرير، قال له الهاتف: (اكس البيت غير ذلك) فزركشها بالفضة والذهب.. ولا أحسب الهاتف إلا القصاص المصرى الشعبى الذى يحب الفخفخة والدندشة...

إنها أناقة مصر.. والرّفه الحضارى.

ونقل المقريزى عن الفاكهى صاحب كتاب (أخبار مكه) قوله: (رأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها: بسم الله .. بركة من الله) . وظل خلفاء بنى العباس يحرصون على كسوة الكعبة من قباطى مصر.

وقد رفع المماليك وظيفة من يشرف على كسوة الكعبة إلى مرتبة الوزارة.. ومن الطريف أن السلطان الظاهر برقوق ضرب كما يقول «ابن إياس»، الاستادار (وظيفة المشرف على كسوة الكعبة أى القبة) ـ جمال الدين محمود «علقة صعبة» بسبب تأخر الكسوة فى عام ٧٩٧ هجريه عن موعدها.

ويحكى الجبرتى عن أحداث ١٢١٣هـ أن كسوة الكعبة انتقل صنعها من القلعة إلى دار أكبر اسم فى القاهرة وهو حاكمها أو محافظها أو ما يسمى «الكتخدا».

وكانت الدور التى تشرف ويشرف أهلها بعمل كسوة الكعبة علامة يقف عندها مؤرخونا كما فعل المقريزى وعلى باشا مبارك فضلا عن الجبرتى. بل تحدث عبد الرحمن الرافعى عن دار كسوة الكعبة الشريفة بالخرنفش ومحتوياتها من آلات الصناعة والغزل بل آلات السباكة والخراطة والتجارة لإصلاح الآلات التى يصيبها العطب.

أقول إن الوجدان المسلم ليختلج من التأثر حين يقرأ ويعرف أن صناع الكسوة المشرفة وعمال زركشتها من تقاليدهم المرعية أنهم لا يقومون بالعمل فيها إلا إذا **كانوا جميعا فى تمام الوضوء.**

وفى بداية عملهم اليومى يقومون بترديد جماعى لفاتحة القرآن الكريم، بصوت جهورى يرج، ليس فقط أرجاء دار الكسوة الشريفة وحدها بل أرجاء شارع الخرنفش كله

من أوله إلى آخره ثم يطلقون من حولهم البخور، وبعد ذلك يرددون الآية القرآنية الكريمة (بسم الله الرحمن الرحيم. إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما).

إنه عمق الوجدان الدينى فى القلب المصرى... إنها إطلالة روحية من وادى الدين ووادى النيل.

أما المحمل فقد درجت الدول الإسلامية على أن ترسل كل منها محملا. وهنا كثرت المنازعات بينها بسبب التنافس فى هذا المضمار الذى كان يجب أن يجمعهم ولايفرقهم. ومن الطريف قول المؤلف:

(فاق المحمل المصرى كل أمثاله من محامل الدول العربية أو الإسلامية فاقهم فى تجهيزه وإعداده ونظامه واحتفالاته، وعاداته وتقاليده ومعتقداته **وفاقهم حتى فى اختلافاته ونزاعاته**).

وقد امتاز المحمل المصرى بالنظام الدقيق فى تكوينه وفى مسيره فكل فرد له عمل محدد يلتزم به فى دقة بالغة. ومن وظائف المحمل المصرى:

١- **أمير الحاج** وهو المسئول الأول عن قافلة الحجاج ورأس الأمر فيها.

٢- **دوادار أمير الحاج** أو كاتب المهمات ومنظم سير ركب المحمل.

٣- **قاضى المحمل** ويعينه قاضى القضاة من بين قضاة المذاهب الأربعة وكان قاضى المحمل له جمل خاص به وله قفطان خاص يلبسه يوم خروج المحمل من القاهرة. وكان له فى كل مساء أربع فطائر وجرايتان من البقسماط كل جراية ستة عشر رطلا غير السكر المكرر أو الحلوى..

أقول: ترى ماذا يقصد المؤلف بالبقسماط؟

ثانيا هذا الطعام كثير إما أن يكون القاضى من الوزن الثقيل وإما أن يكون القاضى من الكرماء يوزع هذا كله على من حوله.

ولم يلبث أن ساء أمر هذه الوظيفة كما يقول المؤلف إذ طمع فيها كل ذى شأن صغير فتردى أمرها وساءت أحكام متوليها الذين كان كل غرضهم الحصول على الأموال فألغيت وأسند الفصل فى المنازعات إلى أمير الحج.

٤- **شهود المحمل** كان يختار اثنان من أهل الخبرة والعدالة -وليس من أهل الثقة .

٥- **مشرف جمال وخيول المحمل.**

٦- **مشرف التموين للمحمل.**

٧- **مشرف المطبخ للمحمل.**

٨- **مشرف السقائين.**

٩- **منظم سير المحمل.**

١٠- **المقدمون على جمال المحمل.**

١١- **مقدم الضوئية والغشامة** أى حملة المشاعل.

١٢- **مقدم الهجانة.**

١٣- **مقدمو القواسة.**

١٤- **صبى الباب.**

١٥- **الميقاتى والمؤذن.**

١٦- **طبيب المحمل** أو الجراح.

١٧- **مهتار الطشت خانه**، اختصاصه إحضار الماء للوضوء وغسل الأيدى.

١٨- **مهتار الشراب خانه**، وهو من يتولى أمر المشروب وأدواته من الفضة والصينى **والنحاس.**

وقد تفرع من هذه الوظيفة وظيفة أخرى فى العصر العثمانى، وهى وظيفة (الأظلم باشا) وهو الموظف الذى عليه أن يسير أمام ركب المحمل ومعه المرطبات للأمير والحجاج.. وظيفة متواضعة ولكن الطبع التركى منحها الباشوية.

ومن الطريف أنه كان يسير فى موكب مكون من ستين مملوكا ومن ثلاث قطع من المدفعية ويصحب فى موكبه فرقة موسيقية يحملها اثنا عشر جملا وتشتمل على عدة طبول أو صناديق من أحجام مختلفة وبوقين أو نفيرين ودفين ومزمارين.

ومن الأطرف أنه فى أواخر العصر العثمانى كان (الأظلم باشا) يحصل على ولاية الشرقية عقب رجوعه من رحلته باعتبار ذلك حقا قانونيا له!!!... وأتذكر نكتة القلل...

١٩- **مهتار الفراشخانة** ومهمته تدبير الخيام اللازم...

٢٠- **الطباخون.**

obeikandl.com

٢١- **الزردكاش**: ويلقب فى اللغة التركية (جيجى باشا) وهو القائم على مهمات السلاح.

٢٢- **النفطى**: وهو البارورى الذى يتولى الصواريخ وغيرها من لزوم الاحتفال والابتهاج عند الوداع والرحيل.

٢٣- **مهتار الركاب خانة**: وهو قائد السياس ولوازم الخيل.

٢٤- **الشعراء**.

٢٥- **الطبول خانة**: وكانت تلازم العلم السلطانى.

٢٦- **البيطار**: أى طبيب بيطرى.

٢٧- **الخباز**.

٢٨- **الكيالون** لتشوين غلال المحمل.

٢٩- **نجار المطبخ**.

٣٠- **نجار الكور**.

٣١- **خولى الأغنام**.

٣٢- **الجزار**: وكان يسمى (الزفورى) فى عهد سلاطين المماليك.

٣٣- **السعاة أو الأولاء**.

٣٤- **المبشرون بالدار** وهم جماعة متعددة من المتصوفة وأهل الصلاح.

٣٥- **المبيت**: ومهمته الطواف على القافلة ليلاً مع العسس.

٣٦- **مبشر الحجاج** كانت مهمته التبليغ عن أحوال الحجاج أو أحوال الأمراء بالحجاز وعند العودة يسرع بإعلان نبأ الوصول وما أكثر الهبات التى تغمره.

لم تنس مصر كعادتها حين تقصد الإحكام والدقة الدقيقة.

ويبدو أن المؤلف كان مبهورا – ومعه حق – بهذا النظام أو التنظيم حتى أنه بدأ يعيد الوصف بعد سبع عشرة صفحة.

ولم ينجح من البهر ابن بطوطه، أثناء مروره بمصر سنة ٧٢٤هـ أى سنة ١٣٢٥م لأداء فريضة الحج.

وكانت الفرجة على المحمل المصرى فى العصر المملوكى متعة يهرع إليها أفواج الناس وخاصة النساء اللائى كن يبتن بالحوانيت حتى ينظرن المحمل فى اليوم التالى.

لقد كان يوم خروج المحمل يوما مشهودا كما يقول ابن إياس تخرج أمامه الأفيال الكبار وهى مزينة بللبوس وعلى ظهورهم الصناجق وقدامهم الطبول والزمور. كما يخرج فى موكب المحمل القضاة الأربعة وقضاة مكة الذين يحضرون إلى القاهرة ومعهم أمير مكة لهذه المناسبة.

واهتم المقريزى بوصف كسوة المحمل كما اهتم الجبرتى به، من بعد.

وكان هناك فى العصر المملوكى ما يسمى **عفاريت المحمل**... وهم فى الأصل كانوا ممثلين يخرجون فى احتفالات المحمل يؤدون أدوارهم أمام الناس ويخرج معهم مصارعون يسمون (البلياتشو) أو ما نسميه الآن السيرك ومنهم من يسير على أرجل خشبيه ترتفع إلى ثلاثة أمتار تقريبا ويسدل عليهم معطف طويل ويلطخون وجوههم بالمساحيق وكان منظرهم يثير ضحك الناس.. نعمة حب المصريين للضحك. إنه أقصد إنها الفكاهة المصرية التى تغسل بحرا من الآلام.

وفى فصل (العادات والمعتقدات الشعبية) يقول المؤلف (كان من عادات الأهالى إحضارهم أولادهم الرضع، ليروا المحمل فيبارك لهم فى ذريتهم).

ومن الغريب أن المؤلف يعتبر هذه الظاهرة، عادة ذميمة!!

هذه الصورة التى أعتبرها المؤلف عادة ذميمة، مست قلبى..

إنها نبضة صدق من شعب حضارته دينية حتى قبل الأديان..

دلالة هذا عمق الإحساس الدينى عن الشعب المصرى.

المسألة ليست فرجة فالأطفال الرضع لاتمثل الفرجة على المحمل شيئا عندهم، ولكنها تمثل كثيرا عند الآباء والأمهات.

إن الذى يبارك طفله بحضور موكب المحمل صادق لاشبهة فى سلوكه من نفاق أورياء كذلك الذى يصلى جهرة رئاء الناس أو يجح ليتاجر بالحجة ويحمل لقب حاج.. هذا مع إقرارى بأن الملايين يؤدون الفريضة عن عقيدة.

والمصريون يعرفون هذا ويتندرون على أصحابه بل تندروا على أمير الحج نفسه ففى ص ١٩٢ – من هذا الكتاب، أمير حج عرف بالظلم فاستقبله المصريون عند عودته – وكان اسم الأتباكى قيت الرجبى – بقولهم:

حججت البيت ليتك لاتحج
فظلمك قد فشى فى الناس ضج
حججت وكان فوقك حمل ذنب
رجعت وفوق ذاك الحمل خُرج
إنها سخرية مصر تدمغ بها ظالميها.

وقد روى الدكتور أحمد أمين أن جمل المحمل كان اختياره يتم بعناية فائقة فهو من النوع الهادىء غير المشاكس. ومن الطريف أنه كان يطلق عليه أحيانا اسم (الشيخ سيد) أو اسم (مبروك) أو اسم (نبيل) وكان جمل المحمل من نوع الجمال ذات المزاج الخاص فقد كان (يشرب دخان المعسل) عن طريق أن يشرب راعيه ويشد أنفاس الدخان بفمه، ثم ينفخها فى أنف الجمل.. جمل المحمل فيستطيب له الحال! والشعب المصرى من صفات المدح عنده قوله عمن يرضى عنه (جمل المحامل).

ومن طرائف جمل المحمل أنه له موظفا خاصا ومساعدا لهذا الموظف... وكان هذا المساعد يقوم بتمشيط الجمل يوميا وتنشيطه بالمشى من دار الكسوة بالخرنفش إلى ميدان سيدنا الحسين ثم العودة. وكان حينما يقف بالجمل أمام المشهد الحسينى تقبل عليه النساء العقيمات وتمر الواحدة تحت بطن جمل المحمل طمعا فى نيل البركة والإنجاب.

ومن الطرائف أن موكب المحمل كان يُعين به رجل يسمى (أبو القطط)، وكان هذا الرجل يقوم بغذاء القطط التى كانت تتبع ركب المحمل مدة سفره فى البر.. وله مرتب.. حتى قطط ركب المحمل لم تنسها مصر.

وقد استلفت هذا نظر ادوارد وليم لين فوقف عنده بالوصف فى كتابه الشهير (المصريون المحدثون – عاداتهم وتقاليدهم).

ومن الطرائف أن الحكومة المصرية عند عودة المحمل من الحج، ترسل جملا **فداء عن جمل المحمل.**

وكان المحمل يزف فى مصر ومكه بالأغانى والأناشيد ولكن المصريين كان غناؤهم للمحمل ينبع من النيل مثل قولهم:

مـــا فـــردت قلوعـــهـــا ∴ مـــــــركب المصطفى
مـــا فـــردت قلوعـــهـــا ∴ يا نهـــــار الهنـــــا
نهـــار رجـــوعـــهـــا ∴ بعـــــــد زيارة النـبى

وقد ضمنت كتابى فى النيل أغانى الحج التى تلمحه استقاء من مجموعة اليونسكو.

وكان أهل «جدة» خاصة يطربون لأغانى المصريين عند مرور المحمل المصرى بجده ويتحلقون حوله لمشاهدته وسماع الموسيقى والأغانى المصرية عن المحمل، والمزمار البلدى حتى غروب الشمس.

لقد جمع هذا الكتاب كل ما يتعلق بموضوعه فكيف فاته قصيدة شاعرنا شوقى (إلى عرفات) التى زادها شهرة وذيوعا وتألقا ترنم أم كلثوم بها؟

كما فاته فى خضم المراجع الكثيرة أو لعله نسى كتاب (حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة) للسيوطى، حين ذكر فى الجزء الثانى قصة الريح العاصفة التى ألقت ستارة الكعبة المشرفة فاعتبر الناس الحادث نذير أفول دولة العباسيين. وقد أعقب هذا غزو التتار الذى اجتاح بغداد لولا أن مصر استقدمت الخليفة العباسى إلى القاهرة كما آوى إليها العلماء.

ولكن يبقى بعد هذا أن الكتاب وثائقى وطريف فى الوقت نفسه!